

الباب الخامس عشر

بوذا

الفصل الأول

الزنادقة

المتشككون — العديمون — السونسطائيون — الملحدون —

الماديون — ديانات بغير إله

إن أسفار اليوباناشاد نفسها تملد على أنه قد كان بين الناس متشككون حتى في أيام اليوباناشاد ؛ فقد كان الحكماء أحياناً يسخررون من الكهنة ، مثال ذلك في سفر « شانندوجيا » من أسفار اليوباناشاد ، تشبيه لرجال الدين المتشددين في تمسكهم بالعقيدة إذ ذاك بموكب من الكلاب أمسك كل منها بذيل سابقه ، وهو يقول في ورع : « أم ، دعونا نأكل ، أم ، دعونا نشرب »^(١) ؛ وفي سفر « سواسانثيد » من أسفار اليوباناشاد تصريح بأنه لا إله ، ولاجنة ، ولا نار ، ولا تناسخ ، ولا عالم ؛ وأن أسفار الثيد او اليوباناشاد ليست إلا تأليفاً من عند جماعة من الحمقى المغرورين ، وأن الأنكار أوهام والألفاظ كلها باطلة ، وأن من تخدعهم العبارات البراقة يتمسكون بالآلهة ، وبالمعابد ، و « بالقدسين » مع أنه لا فرق في حقيقة الواقع بين « فشنو » (الإله) وبين كلب من الكلاب^(٢) ؛ وإن قصة لثروى عن « فيروكانا » الذى عاش اثنين وثلاثين عاماً تلميذاً للإله العظيم « براچاڤاتى » نفسه ، وأنه تعلم علماً كثيراً عن « النفس التى خلصت من الشرور ، التى لا تشيخ ، ولا تموت ، ولا تحزن ، ولا تجوع ، ولا تنطأ ، والى لا ترغب إلا الحلق » ، ثم عاد « فيروكانا » بغمته إلى الأرض وطفق يعلم

الناس هذا المذهب الآنى . الذى هو فضيحة الفضائح : « حياة الإنسان إنما تسعد هاهنا على الأرض . ونفس الإنسان لا بد من إشباع رغباتها ، فمن استطاع أن يسعد نفسه على هذه الأرض ، وأن يشبع رغبات نفسه ، كسب الدارين معاً ، هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة (٢) » ، وإذن فقد يكون البراهميون الصالحون الذين صانوا تاريخ بلادهم ، قد خدعونا قليلاً حين أفهمونا أن نزعة التصوف والتقوى بين هندوس كانت عامة لم يشذ عنها أحد .

والحق أنه كلما كشف لنا البحث العلمى عن شخصيات لم تكن فى المنزل العليا من احترام الناس ، ممن اشتغلوا بالفلسفة الهندية قبل بوذا ، ارتسمت لنا صورة تبين لنا إلى جانب القديسين السابحين فى تأملاتهم عن إلههم « براهما » ، طائفة من الأشخاص احتقرت الكهنة وشككت فى الآلهة ، وسميت - دون أن ترتاع لهذا الاسم - سميت بطائفة « اللأدرين » و « العدميين » ؛ فتلا رفض « سانجايا » اللأدرى أن يثبت أو أن ينفى الحياة بعد الموت ، وتشكك فى إمكان حصول الإنسان على العلم اليقينى ، وحصص الفلاسفة فى محاولة استتباب السلام ؛ كذلك أتى « پورانانكاشياپا » أن يعترف بالفوارق الخلقية ، وعلم الناس أن الروح عبد للمصادفة لا يملك لها دعماً ؛ وذهب « ماسكارين جوسالا » إلى أن القدر قد نخط فى لوحة كل شىء بصيبه الإنسان بغض النظر عما هو جدير به حقاً ؛ ورد « أچيتا كاسا كامباين » الإنسان إلى عناصره هى التراب والماء والنار والهواء ، وقال « إن الحقيقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد ، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت (٣) » ولقد صور لنا مؤلف « رامايانا » صورة نموذجية للمتشكك حين صور لنا « چابالى » الذى جعل يسخر من « راما » لأنه رفض مملكة لينى بوعد تعهد بالوفاء به :

« چابالى وهو برهمى عالم وسوفسطائى مهتر فى الكلام ، تشكك فى

الإيمان وفى القانون والواجب ، وراح يحدث سيد أبوذيا الشاب قائلاً :

أنى لك يا «راما» هذه الحكيم السخيفة التى ترين على قلبك وتكتنف عقلك .

هذه الحكم التى تضلل السذج ومن لا يتعمقون التفكير من بنى الإنسان ..؟
أواه ، إنى لأبكى من أجل هؤلاء الفانين من الناس حين يخطئون فيكتبون على واجب باطل .

ويضحون بهذه المتعة الحبيبة إلى النفس حتى تنقضى حياتهم القاحلة .
وما ينفكون يقدمون العطايا للآلهة وللأسلاف ؛ ياله من ضياع للطعام ؟
لأنه لا الإله ولا السلف يأخذ منا هذا الذى نقدمه إليه فى ولاء وتقوى !
وهل إذا أكل الطعام آكل ، تغذى به ناس آخرون ؟
فهذا الطعام تقدمونه لبرهمى ، هل يمكن له إذن أن يشبع الآباء السالفين ؟
إن الكهنة بنجبتهم قد صاغوا هذه الحكيم ، وهم يقولون إذ هم ينظرون
إلى أغراض أنانية :

« قدّم قربانك وتب إلى الله ؛ واترك مالك الدنياوى واخلص للصلاة ؟ »
كلا ، يا «راما» ليس هناك حياة آخرة ، وكلها أباطيل
هذه الآمال وهذه العقائد عند الإنسان .

فابحث عن لذائذ الحاضر ، واطرد عن نفسك هذه الأوهام العابثة
الواهية^(٥) .

ولما شب بوذا رجلا ، وجد القيعان والشوارح بل وجد الغابات فى شمال
الهند ، تتجاوب كلها بأصداء نزاع فلسفى ، كان فى جملة ينحو نحواً إلحادياً
مادياً . وإنك لترى الأسفار الأخيرة من « يوپانشاد » ، كما ترى أقدم الأسفار
البوذية مألئى بالإشارات إلى هؤلاء الزنادقة^(٦) ؛ فقد كان هناك طائفة كبيرة
من السوفسطائيين الجوالين - ويسمونهم پاريباچاكا أو المتجولين - تنفق أحسن
أيام السنة فى الرحلة من مكان إلى مكان ، باحثة لها عن تلاميذ أو معارضين
فى البحث الفلسفى ؛ وبعضهم كان يعلم المنطق على أنه الفن الذى تستطيع به أن

تبرهن على أى شىء ، ولذلك أطلق عليهم بحق اسم «من يشققون الشعرة» أو «من يتلون تلوى ثعابين الماء» ؛ وآخرون طفقوا يرهنون على عدم وجود الله وعدم ضرورة اصطناع الفضيلة ؛ وكانت جموع كبيرة من الناس تحتشد لتسمع أمثال هذه المحاضرات والمناقشات ، وبنيت قاعات لهم خاصة ، وكان الأمراء أحياناً يكافئون الظافرين في أمثال هذه الحلقات الفكرية (٧) ؛ حتماً لقد كان عصرآ يدهشك بحرية فكره ، وبأواوان التجارب التى أجزاها أهله في عالم الفلسفة .

ولم يبق لنا كثير مما قاله هؤلاء المتشككة ، والفضل في خلود ذكراهم يرجع كله تقريباً إلى ما هاجمهم به أعداؤهم (٨) ، وأقدم اسم بين تلك الطائفة هو «برهاسپاتى» لكن أقواله الهدامة قد فنيت كلها ، بحيث لم يبق لنا منها إلا قصيدة واحدة تحط من شأن الكهنة في لغة لا يشوبها غموض الميتافيزيقا :

ليس للجنة وجود ، وليس هناك خلاص أخير ؛

فلا روح ، ولا آخرة ، ولا طقوس للطبقات ...

إن فيدا ذات الوجوه الثلاثة ، وأمر الإنسان لنفسه بلغات ثلاث ،

وهذه التوبة بكل ما فيها من تراب ورماد .

كل هذه وسائل عيش لقوم

خلوا من الذكاء والرجولة ...

كيف يمكن لهذا الجسد إذا ما أصبح تراباً ..

أن يعود إلى الظهور على الأرض ؟ وإذا كان في وسع الشبح أن يمتضى

إلى عوالم أخرى ، فلماذا لا يجذبه الحب الشديد

لمن يخلفهم وراء ، فيرجعه إليهم ؟

إن هذه الطقوس الغالية التى تقام لمن يموتون

ليست إلا وسائل عيش دبّرها

دهاء الكهنة - لا أكثر من ذلك ...
 فما دمت حياً ، أنفق حياتك مطمئن البال
 مرح النفس ؛ ليفترض الإنسان مالا
 من أصدقائه جميعاً ، ويطعم نفسه بالزبد المذاب^(٩) .

وعلى أساس القواعد التي أذاعها « بريهاسپاتي » هذا ، نشأت مدرسة هندوسية مادية بأسرها ، أطلق عليها اسم واحد من رجالها . وهو « شارفاكا » وكانت أتباع هذه المدرسة يضحكون من سخف الرأي القائل : إن أسفار الفيدا قد احتوت على الحق كما أوحى به الله ؛ وقالوا في حججهم إن الحق يستحيل معرفته إلا عن طريق الحواس ؛ وحتى العقل لا يجوز الركون إليه والثقة به ، لأن كل استدلال عقلي لا يعتمد في صوابه على الملاحظة الدقيقة والتدليل الصحيح فحسب ، بل يعتمد كذلك على افتراض أن المستقبل سيحىء على غرار الماضي ؛ واليقين في مثل هذا الافتراض مستحيل ، كما كان « هيوم » ليقول في الموضوع عندئذ^(١٠) ؛ قال فريق « الشارفاكا » إن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود ؛ وإذن فالروح وهم من الأوهام . والإله « أتمان » أبطولة من الأباطيل : إننا لا نصادف في تجاربنا ولا في تجارب السالفين ؛ إذ نستبطن أنفسنا ، أية علامة تدل على وجود قوى خارقة للطبيعة . العالم ؛ كل الظواهر طبيعية ، ولا يردها إلى الشياطين أو الآلهة إلا السذج^(١١) ؛ والمادة هي وحدها الحقيقة التي لا حقيقة سواها ؛ والجسم مجموعة من ذرات اجتمع بعضها ببعض^(١٢) وما العقل إلا أداة تفكر ؛ والجسم - لا الروح - هو الذي يشعر ويرى ويسمع ويفكر^(١٣) « من ذا الذي رأى روحاً موجودة في استقلال عن الجسم ؟ » فليس هناك خلود ولا عودة إلى الحياة ؛ والدين كله تخليط وهذيان وسفسطة خادعة ، وافتراض وجود الله لا ينفع شيئاً في ترح العالم أو فهمه ، وإذا اعتقد الناس بضرورة الدين ، فما ذاك إلا أنهم تعودوه ، ولذا فهم يحسون كأنما ضاع منهم ضائع ؛ ويشعرون كأنهم في خلاء لا تطمئن

له النفوس ، حين تنمو معارفهم نمواً يهدم العقيدة الدينية^(١٤) ؛ وكذلك الأخلاق أمر طبيعي ؛ فهى عرف اجتماعى ووسيلة لراحة العيش فى المجتمع ، وليست بالأمر الصادر من الله ؛ والطبيعة لا تأبه بخير أو شر ، لفضيلة أو رذيلة ، وهى تشرق بشمسها فى غير تفرقة بين الأوغاد والتقيدين ؛ فلو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً ، فهى منافاتها للأخلاق كما تعرفها حدود البشر ؛ ولا حاجة للإنسان إلى إلجام غرائزه وشهواته ، لأن هذه هى الإرشادات التى رسمتها الطبيعة للناس ، الفضيلة غلطة من الغلطات ، وغاية الحياة هى أن تعيش ، والحكمة الوحيدة هى أن تعيش سعيداً^(١٥) .

كانت هذه الفلسفة الثائرة التى أخذ بها فريق « الشارفاكا » ختاماً لأسفار الفيدا وأسفار اليوبانشاد ، وزعزعت سلطة البراهمة على العقل الهندى ، وتركت فى المجتمع الهندوسى فراغاً كاد يضطر الناس اضطراراً أن يصطنعوا لأنفسهم ديناً جديداً ؛ لكن أنصار المذهب المادى هؤلاء كانوا قد أجادوا أداء مهمتهم لإجادة جعلت الديانتين اللتين نشأتا لتحل محل العقيدة الفيدية ، ديانتين ملحدتين ، أو عقيدتين تعبدتين بغير إله – ولو أن هذا القول قد يبدو للقارىء تناقضاً – فكلتا الديانتين الجديديتين كانتا شعبتين من الحركة الهدامة ؛ وكلتاها لم تكونا من إنشاء الكهنة البراهمة ، بل ابتدعهما فريق من « الكشاترية » أى طبقة المقاتلين ، ليردوا بهما فعل اللاهوت والطقوس للكهنوتية ، وبظهور هاتين الديانتين ، وهما البخاتية والبوذية ، بدأ التاريخ الهندى عصرًا جديدًا .

الفصل الثامن

ماهاقيرا والجانتيون

البطل العظيم - العقدة الجانتيية - تعدد الآلهة والشرك بالله -
التكشف - الخلاص بالانتحار - تاريخ الجانتيية في مراحلها الأخيرة

حول منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وُلد صبي لرجل ثرى من أشراف قبيلة « ليشاى » فى ضاحية من ضواحي مدينة « فابشالى » فى الإقليم الذى يسمى الآن بإقليم « بهار » (*). وكان أبواه على ثرائهما ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن يعود ، وتنظر إلى الانتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر ؛ فلما أن بلغ وليدهما عامه الحادى والثلاثين ، أزهقا روحهما بجوع متعمد ؛ فتأثر ابنهما الشاب تأثراً بلغ منه سويداء نفسه ، فاطرح العالم كله وأساليب العيش فيه ، ونخلع عن جسده كل ثيابه ، وضرب فى أرجاء الإقليم الغربى من البنغال زاهداً متقشفاً ، ينشد تطهير نفسه من أدرانها كما يقصد أن يزداد بسر الوجود فهماً وعاماً ، وبعد أن قضى فى إنكار ذاته على هذا النحو ثلاثة عشر عاماً ، أعلنت جماعة من أتباعه أنه « چينا » (أى قاهر) ومعنى ذلك أنه معلم من عظماء المعلمين الذين يكتب لهم القدر - هكذا كانوا يعتقدون - أن يظهرُوا على فترات دورية لهدوا شعب الهند سواء السبيل .

واختار هؤلاء الأتباع لزعيمهم اسماً جديداً هو « ماهاقيرا » أو « البطل العظيم » ، وانخسبوا لأنفسهم اسماً اشتقوه من اسم عقيدتهم فأطلقوا على أنفسهم اسم « الجانتيين » ونظم « ماهاقيرا » طائفة من رجاله يكونون

(*) يروى الرواة أن ماهاقيرا عاش بين سنتى (٥٩٩ - ٥٢٧ ق . م .) . لكن جاكوفى يعتقد أن ٥٤٩ - ٤٧٧ ق . م . أقرب إلى الصواب (١٦) .

رهباناً عزاباً وطائفة من النساء يكنّ راهباتٍ عانسات ؛ فلما أن جاءت به
حنينته وهو في الثانية والسبعين من عمره ، ترك وراءه أربعة عشر ألفاً من
أشباع مذهبه .

وأخذت هذه العقيدة شيئاً فشيئاً تخرج من جوفها مذهباً من أعجب
ما شهدته تاريخ الديانات من مذاهب ؛ فقد بدأ هؤلاء الأتباع بمنطق واقعي ،
إذ وصفوا المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبي الذي يقع في الزمان ، فكانوا
يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة ، ولو نظر إلى هذا
الحق من وجهات نظر أخرى لكان الأرجح أن يكون باطلاً ؛ وكان يلذ لهم
دائماً أن يرووا قصة العميان الستة الذين وضعوا أيديهم على أجزاء مختلفة
من جسم الفيل ، فن وضع يده على أذنه ظن أن الفيل مروحة ضخمة للدرّ
والغلال ، ومن وضع يده على ساقه قال إن الفيل عمود مستدير كبير (٧١) ،
فالأحكام كلها - إذن - محدودة بمحدود ومشروطة بشروط ، وأما الحقيقة
المطلقة فلا تتكشف إلا لهؤلاء المخلصين للبشر الذين يظهرون على فترات
منتظمة ، أو طائفة « الحنا » كما كانوا يسمونهم ؛ وليست تنفع أسفار الفيدا
لسد هذا النقص ، لأنها لم تهبط من إله ، وأقل ما يقال في التذليل على ذلك
أن ليس هنالك إله ؛ وقد قال الجانتيون إنه ليس من الضروري أن نفرض
وجود خالق أو سبب أول ، فكل طفل يستطيع أن يفند مثل هذا الفرض
بقوله إن الخالق الذي لم يُخلَق أو السبب الذي لم يسبقه سبب ، لا يقل صعوبة
عن الفهم عن افتراض عالم لم تسبقه أسباب ولم يخلقه خالق ؛ وإنه لأقرب
إلى المنطق السليم أن نعتد أن الكون كان موجوداً منذ الأزل ، وأن تغيراته
وأطواره التي لا نهاية لها ترجع إلى قوى كامنة في الطبيعة ، من أن تعزو هذا
كله إلى صناعة إله (١٨) .

لكن مناخ الهند لا يساعد على عقيدة طبيعية تقوم بين الناس وتثبت ، فلما
أفرغ الجانتيون السماء من إلهها ، لم يلبثوا أن عمّروها من جديد بطائفة من
القدسيين الموهلين ممن روى أخبارهم تاريخ الجانتيين وأساطيرهم ؛ وراحوا

يعدونهم مخلصين لهم العبادة مقيمين لهم الشعائر ؛ لكنهم اعتبروا هؤلاء المرثيين أنفسهم خاضعين للتناسخ والتحلل ، ولم يعدوهم خالقين للعالم أو سادة عليه يحكمونه بأى معنى من المعانى (١٩) ، وليس معنى ذلك أن الجانتيين كانوا يعتقدون مذهباً مادياً خالصاً ، لأنهم فرقوا بين العقل والمادة فى كل الكائنات ، فى كل شىء ، حتى الأحجار والمعادن ، أرواح كاهنة ، وكل روح نجيا حياتها بغير شائبة تلام عليها ، تصحح « پاراماتمان » - أو روحاً سامية - وكانت تنجو بذلك من التقمص فى جسد آخر ، مدى حين ، على أنها تتقمص جسدها الجديد إذ ما نالت من الجزاء حقها الموفور ، ولا ينعم « بالخلاص » الكامل إلا أعلى الأرواح وأكملها ؛ ومن هؤلاء تتكون طائفة « الأزهات » - أى السادة المعظمين - الذين كانوا يعيشون ، مثل آلهة أبيقور ، فى مملكة بعيدة ظليلة ، وهم عاجزون عن التأثير فى شئون الناس ، لكنهم ينعمون بارتفاعهم عن كل احتمال يؤدى إلى عودتهم إلى الحياة (٢٠) .

والطريق المؤدية إلى الخلاص فى رأى الجانتيين ، هى توبة تقشفية ، واصطناع « أهْمِسَا » موفورة كاملة ، « وأهْمَسَا » معناها الامتناع عن إيذاء أى كائن حى ؛ ولزام على كل متقشف جانتي أن يأخذ على نفسه عهداً خمسة ، ألا يقتل كائناً حياً ، وألا يكذب ، وألا يأخذ ما لم يُعطه ، وأن يصون عمنه وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها ؛ وفى رأيهم أن اللذة الحسية خطيئة دائماً ؛ والمثل الأعلى هو أن تأبه للذة أو ألم وأن تستغنى استغناء تاماً عن الأشياء الخارجية كلها ؛ فالزراعة حرام على الجانتي لأنها تمزق التربة وتستحق الحشرات والديدان ؛ والجانتي الصالح يرفض أكل العسل لأنه حياة النحل ، ويصنى الماء قبل شربه خشية أن يقتل ما عساه أن يكون كامناً فيه من كائنات ؛ ويغضى فمه حتى لا يستنشق مع الهواء أحياء عالقة فيقتلها ، ويحيط مصباحه بسترار حتى يبق الحشرات لذع النار ، ويكنس الأرض أمامه وهو يمشى خوفاً من أن

تدوس قدمه الخافية على كائن حتى فتترديه ؛ ولا يجوز للجائتي أبدأ أن يذبح حيواناً أو يضحى به ، ولو كان « جانتيا » صمياً أقام المستشفيات والمصحات - كما ترى في أحد أباد - للحيوانات إن هرمت أو أصابها أذى ؛ والحياة التي يجوز له أن يزهقها هي حياته دون غيرها ؛ فالعقيدة الجانتيّة تجيز الانتحار ولا تقيم في سبيله العقبات ، خصوصاً إذا تم بوسيلة الجوع ، لأن ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء ؛ ولقد مات جانتيون كثيرون على هذا النحو ، وقادة المذهب يبارحون هذه الدنيا - حتى في عصرنا هذا - يتجريح أنفسهم حتى الموت (٢١) .

إن عقيدة دينية كهذه ، قائمة على أساس من الشك العميق في قيمة الحياة والإنكار الشديد لها ، كان يمكن أن تجد في الناس شيوعاً في بلد ما فتئت الحياة فيه عسيرة شاقة ؛ لكن هذا التطرف في الزهد قد حال دون إقبال الناس عليها حتى في الهند ؛ فنجد ظهور المذهب الجانتي ، والجانتيون صفوة مختارة ؛ وعلى الرغم من أن « يوان شوانج » وجدهم عديدي النفر أقوياء الأثر في القرن السابع (٢٢) . فلنهم كانوا عندئذ في أوج حياتهم التي سألحت سيرتها في هدوء ؛ وحدث سنة ٧٩ ميلادية أن انشقوا فريقين تفصلهما هوة سحيقة من اختلاف الرأي على موضوع العرى ؛ ومنذ ذلك الحين ، كان الجانتي إما أن يكون منتسباً إلى طائفة « شويتامبارا » - أي طائفة ذوى الأردية البيض - وإما أن يكون منتسباً إلى طائفة « ديجامبارا » - أي المتزملين بالسماء ، أو ذوى الأجساد العارية ؛ وكلتا الطائفتين تلبس الثياب العادية كما يقضى المكان والزمان ، وقد يسوهم وحسدهم هم الدين يجوبون الطرقات ، عراة الأجسام ؛ وهذان المذهبان الفرعيان لها فروع ، فطائفة « ديجامبارا » لها أربعة فروع ، وطائفة « شويتامبارا » لها أربعة وثمانون فرعاً (٢٣) ، ويبلغ عدد أتباع الطائفتين معاً مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة من عدد السكان الذين يبلغون ثلاثمائة وعشرين

مليوناً (٢٤) ، ولقد كان غاندى شديد التأثير بالمذهب الجائى ، واصطنع « أحميسا » - ومعناها الامتناع عن إيداء الكائنات الحية على اختلافها - أساساً لسياسته وحياته ، ورضى من الثياب بقطعة صغيرة من القماش تستر ردفه ، ولم يكن يستحيل عليه أن يزهق نفسه جوعاً ؛ ومن يدري ؟ فلعل الجائين يسلكونه فى طائفة « الجنا » فيعدونه تجسداً جديداً للروح العظمى التى تتقدس جسداً من لحم على فترات منتظمة من الدهر لتخلص العالم .

الفصل الثالث

أسطورة بوذا

بهاقة البوذية - الولادة المعجزة - النشأة - أحزان
الحياة - الحرب - أعوام التقشف - الهداية -
رؤية النرفانا

إنه لمن العسير على أبصارنا أن ترى عبر ألفين وخمسمائة عام ماذا كانت
الظروف الاقتصادية والسياسية والخلقية التي استدعت ظهور ديانتين تدعوان
مثل ما تدعو إليه الجانتيه والبوذية من تقشف وتشاؤم ؛ فما لا شك فيه أن
الهند كانت قد نطقت خطوات فسيحة في سبيلها إلى الرقي المادى منذ استقرارها
الحكم الآرى : فبنيت مدائن عظيمة مثل « باتالپسترا » و « فايشلى » ؛ وزادت
الصناعة والتجارة من ثروة البلاد ؛ والثروة بدورها خلقت لطائفة من الناس
فراغاً ، ثم طوّر الفراغ العلم والثقافة ؛ ومن الجائز أن تكون الثروة في الهند
هى التى أشاعت فيها النزعة الأبيقورية المادية خلال القرنين السابع والسادس
قبل الميلاد ؛ ذلك لأن الدين لا يزدهر فى حياة تزدهر بالثراء ، إذ الحواس
فى ظل الثراء تحرر نفسها من قيود الورع وتختاق من الفلاسفات ما يبرر هذا
التحرر ؛ وكما حدث فى الصين أيام كونفوشوس ، وفى اليونان أيام
بروتاجوراس - ولن نذكر فى الهند أيام بوذا - أن أدى الانحلال العقلى للديانة
القديمة إلى شك وفوضى فى الأخلاق ، فالجانتيه والبوذية ، لو أنهما مترعتان
فى ثناهما بلون من الإلحاد الكتيب ، الذى ساد ذلك العصر بعد أن زالت عن
عينيه غشاوة الأحلام وأوهامها ؛ إلا أنهما فى الوقت نفسه كانتا بمثابة رد فعل
من جانب الدين فى مقاومته لمذاهب اللذة التى أخذت بها طبقة من الناس

حررت نفسها ونعمت في حياتها بالفراغ (*) .

وتصف الرواية الهندوسية والد بوذا - شُدْ دُوْذانا - بأنه رجل غمس نفسه في الحياة ، وهو من أبناء عشيرة «جواتاما» التي تنتسب إلى قبيلة «شاكيا» المُدَلَّة بنفسها: كان أميراً أو ملكاً على «كايبلا فاستو» عند سفح الهملايا (٢٥)؛ ولكننا في حقيقه الأمر لا نعرف شيئاً عن بوذا معرفة اليقين ؛ فلو رأيتنا قد قصصنا عليك هاهنا القصص التي تجمعت حول اسمه ، فليس ذلك لأنها تاريخ نريد إثباته ، ولكننا نرونها لأنها جزء ضروري من الأدب الهندي والديانة الآسيوية ، ويحدد العلماء مولد بوذا بعام يقرب من سنة ٥٦٣ ق . م ثم لا يستطيعون أن يضيفوا إلى ذلك شيئاً ، فتتناول الأساطير بقية قصته ، وتكشف لنا عن الغرائب التي قد تحدث حين تحمل الأمهات بأعلام الرجال ، فيذكر لنا سفر من أسفار «جاتاكا» (***) أنه في ذلك الوقت :

« في مدينة كايبلا فاستو » أعلن عن الاحتفال بالبدر ؛ وبدأت الملكة «مايا» قبل موعد البدر بسبعة أيام تقيم حفلاتها بالعيد دون أن تقدم فيها المسكرات ، مكثية بما أغرقت به ولائها من أكاليل الزهور والعطور ؛ وفي اليوم السابع - يوم اكتمال البدر - استيقظت مبكرة واستحمت في ماء

(*) لاحظ كثيرون أن هذه الفترة تميزت بكثرة الأنجم الواضع في تاريخ العبقرية ؛ فـ « ماهافيرا » و « بوذا » في الهند ؛ و « لاوتسى » و « كورنوشوس » في الصين ؛ و « إرميا » و « أشعيا الثاني » في الأمة اليهودية ؛ وفلاسفة ما قبل سقراط في اليونان ؛ وربما كان ذلك أيضاً عهد « زرادشت » في فارس ؛ ومثل هذا التعاصر في النوع يدل على تبادل المؤثرات بين هذه الثقافات القديمة بدرجة أكبر مما يمكننا أن نتمقبه اليوم على سبيل التحديد .

(**) وهي « قصص عن ولادة » بوذا كتبت حول القرن الخامس الميلادي وهناك كذلك أسطورة أخرى عنوانها « لا ليتا فستارا » التي تروجهما إلى الإنجمازية سير إدون آرنلد بعنوان « ضوء آسيا » .

وأحسنن للفقراء بأربعمائة ألف قطعة من النقد : ولما أخذت زخرفها وازينت ، جلست تأكل طعامها من أطيب الطعام ، وقطعت على نفسها عهد « أبوسلذا » (*) ، ثم دخلت مخدعها الرسمى المزدان ، واستلقت على سريرها ، فأخذها النعاس ورأت هذا الحلم :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها في سريرها ويأخذونها إلى جبال الهملايا ويضعونها على هضبات مانوسيل . . . ثم رأت ملكات هؤلاء الملوك الأربعة ، يأتين إليها فيأخذنها إلى بحيرة أنوتانا ، ويغمسها في الماء ليزلن عنها الصبغة البشرية ، ويلبسها أردية سماوية ويعطرنها بالعطور ويزيننها بالزهور المقدسية ؛ ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلا من فضة وعليه قصر من ذهب ؛ وهنالك أعددن لها سريراً إلهياً رأسه إلى الشرق ، وأرقدن عليها ؛ وهاننا انقلب « بوذيساتوا » (**) فيلا أبيض ، وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب فلما أن بلغه هبط منه إلى جبل الفضة آتياً إليه من جهة الشمال ؛ وفي جمعته التي أشبهت جبلا من فضة ، كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ؛ وبعده نفتح في الصور ودخل قصر الذهب ودار تجاه اليمين دورات ثلاثاً حول سرير أمه ، ثم ضرب جنبها اليمين وظهر لها كأنه يدخل في رحمها ؛ وبهذا تلقى . : حياة جديدة .

واستيقظت الملكة في اليوم التالي وروت حلمها للملك ؛ فدعا الملك إلى حضرته أربعة وستين من أعلام البراهمة ، ونخلع عليهم خلع التكريم وأشبههم طعاماً فآخراً وقدم إليهم الهدايا ؛ فلما أن رضيت نفوسهم بهذه اللذائذ كلها ،

(*) هي عهد تقال في أربعه أيام مقدمة من كل شهر ، وهي أيام البدر والحلال واليوم الثامن بعد كل منهما .

(**) شخص أراد له القدر أن يكون بوذا ، ومعناها هنا « بوذا » نفسه ، ومعنى كلمة بوذا « المستنير » وهي بين كثير من الألقاب التي تخلع على « السيد » الذي كان اسمه الشخصي « سدذارتا » واسم عشيرته « جواتاما » ؛ وكذلك كان يسمى « شاكيا - موف » ومعناها « حكيم جماعة شاكيا » كما كان يسمى أيضاً « تلاذاجاتا » ومعناها « الرجل الذي ظفر بالحق » ؛ ومع ذلك فلم يطلق بوذا على نفسه لقباً من هذه الألقاب فيما نعلم (٢٧) .

أمر بالحلم أن تُقَصَّ عليهم قصته ، واستفسرهم ما يمكنه الغيب ، فقال الراحمة :
لا يأخذنك الهم أيها الملك ، فقد حملت الملكة ، حملت ذكراً لا أنثى ،
وسيكون لك ابن ؛ ولو سكن ذلك الولد بيتاً فسيكون ملكاً ، سيكون ملكاً
على الدنيا بأسرها ، وأما إن ترك داره وخرج من أحضان العالم ، فسيصبح
بوذا ، وسيكون في هذا العالم رافع الغشاوة عن أعين الناس (غشاوة الجهل) :
وحملت الملكة « مايا » « بوذيساتاوا » عشرة أشهر كأنه الزيت في القدح ،
ولما أن جاءها أوانها رغبت في الذهاب إلى بيت أهلها ، ووجهت الخطاب
إلى الملك « شدذوذانا » قائلة : « أريد أيها الملك أن أذهب إلى « ديفاداذا »
مدينة أسرتي » فوافق الملك وأمر بالطريق من « كايلافاستو » إلى « ديفاداذا »
أن يمهد وأن يزين بأصص النبات ، وبالرايات والأعلام ، وأجلسها في
هودج من ذهب يحمله ألف من رجال البلاط ، وأرسلها إلى بيت أهلها في
حاشية كبيرة ؛ وبين البلدين حَرَج يملكه أهل المدينتين جميعاً ، هو حرج يمرح
فيه الناس ، يتألف من أشجار « الملح » ويسمى « حرجُ المُبِينِي »
وكان الحرج إذ ذاك كتلة واحدة من الزهر الذي يغطي الأشجار من جذورها
إلى رؤوسها . . . فلما رأتها الملكة رغبت في أن تمرح في الحرج . . . وذهبت إلى
جذع شجرة كبيرة من أشجار « الملح » وأرادت أن تمسك بغصن من غصونها
فانحنى الغصن حتى بات في متناول يدها كأنه الطرف الأعلى من قصبة لينة ،
ومدت يدها وتناولته ، وفي هذه اللحظة عينها اهتزت بالمخاض ، فأقامت لما
الحاشية ستاراً يسترها ، وأهدمت عنها ، فوضعت وليدها وهي لم تزال واقفة .
ممسكة بغصن الشجرة في يدها ؛ ولم ينزل « بوذيساتاوا » — كما ينزل سائر
الأطفال من أجواف أمهاتهم — ملوثاً بالشوائب ؛ بل نزل « بوذيساتاوا » كما
ينزل الواعظ من منبر وعظه ، نزل كأنه الرجل ينزل السلم ، ومد يديه
وقدميه ، ووقف لا يلوئه القدر ولا تدنسه شائبة من الشوائب ، وقف مشرقاً
بالضوء كأنه جوهرة موضوعة على ثوب بنارسي ، هكذا هبط من جوف أمه (٢٨)»

وفوق ذلك ينبغي أن تعلم أنه عند مولد بوذا ظهر في السماء ضوء لامع ،
وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة
من علياء سماتها لتمدّ له أيدي المعونة ، وأقبل الملوك من نائي البلاد يرحبون
بمقدمه ، وتصور لنا الأساطير صورة زاهية لما أحاط نشأته من أسباب العز
والترف ؛ وعاش عيش الأمير الهاني في ثلاثة قصور « كأنه إله » ، وكان
أبوه يقيه ، مدفوعاً بحبه الأبوي ، شر الاتصال بما تعانیه الحياة البشرية من
آلام وأحزان ؛ وكان يقوم على تسليته أربع آلاف راقصة ، ولما بلغ الرشد ،
عرضت عليه خمسمائة سيدة ليختار إحداهن زوجة له ؛ ولما كان ينتمى إلى
طبقة « الكشاترية » - أي « المقاتلين » أحسن تدريبه في الفنون العسكرية ،
ولكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء حتى أتقن دراسة النظريات
الفلسفية كلها التي كانت شائعة في عصره (٢٩) ؛ وتزوج وأصبح والدًا سعيدًا .
يحياته ، وعاش في ثراء ودعة وطيب أحواله .

ويروى الرواة الصالحون أنه خرج من قصره ذات يوم إلى الطرقات .
حيث عامة الناس ، وهناك رأى شيخاً كهلاً ، وخرج يوماً ثانياً فرأى
رجلاً مريضاً ، وخرج يوماً ثالثاً فرأى ميتاً ... فاسمع له يروى القصة بنفسه -
كما نقلها أتباعه في الكتب المقدسة - يرويها فيحرك في نفسك كامن الشعور .

« وبعدئذ أياها الرهبان جرت خواطري على النحو الآتي - فيما كنت
فيه من جلال عيش ورفاهية بالغة - قلت لنفسي : « إن رجلاً جاهلاً من
سواد الناس ، ستنال منه الكهولة كما نالت من ذلك الشيخ ، وليس هو
بالبعيد عن نطاق الشيخوخة ، يضطرب ويستحي وتعاف نفسه حين يبصر
بشيخ كهل لأنه يتصور نفسه في مثل حالته ؛ إنني كذلك قابل للشيخوخة ،
ولست بعيداً عن نطاقها ؛ أفينبغي لي - وأنا القابل للشيخوخة - إذا ما رأيت
شخصاً كهلاً ، أن أضطرب وأستحي وأن تعاف نفسي ؟ » لم أر ذلك .
مما يليق ؛ ولما طاف برأسى هذا الخاطر ، ذهب عنى بغتة كل تيه بشبابي ...

وهكذا أيها الرهبان قبل أن أهتدى سواء السبيل ، لما وجدته من تجوز عليهم الولادة ، بحث في طبيعة هذه الولادة ماذا تكون ؛ ولما وجدته من تجوز عليهم الشيخوخة بحث في طبيعة هذه الشيخوخة ماذا تكون ، وكذلك المرض ، وكذلك الحزن ، وكذلك الدنس ؛ ثم فكرت لنفسى : « ما دمت أنا نفسى من تجوز عليهم الولادة ، فإذا لو بحث في طبيعتها ... فلما رأيت ما فى طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عن لا يولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة الرفاقا (٣٠) .

إن الموت هو أصل الديانات كلها ؛ ويجوز أنه لو لم يكن هناك موت لما كان للآلهة عندنا وجود ، هذه النظرات كانت بداية « التنوير » عند بوذا ؛ وكما يرتد الإنسان عن دينه فى لحظة ، وكذلك حدث لبوذا أن صمم فجأة أن يترك إياه (*) وزوجته وابنه الرضيع ، ليضرب فى الصحراء زاهداً ؛ ولما أسدل الليل ستاره ، تسلل إلى غرفة زوجته ، ونظر إلى ابنه « راهولا » نظرة أخيرة ؛ وتقول الأسفار المقدسة البوذية ، فى فقرة يقدها أتباع « جوتاما » جميعاً ، إله فى هذه اللحظة عينها :

« كان مصباح يضىء بزيت عبق ، وكالت أم « راهولا » نائمة على سرير حلىء بأكداس الياسمين وغيره من ألوان الزهور ، واضعة راحتها على رأس ابنها ؛ فنظر « بوذستاوا » - بوذا المنتمر - وقدماه عند الباب ، وقال لنفسه : « لو أزلحت يد الملكة لآخذ ابنى ، فستسقيظ الملكة ، وسيكون ذلك حائلا دون فرارى ؛ لإننى إذا ما أصبحت بوذا سأعود لأراه » ونزل من القصر (٣١) :

وفى ظلمة الصباح الباكر خدَّفَ المدينة على ظهر جواده « كانثاكا » يصحبه سائق عربته « شونا » وقد تعلق يائساً بذيل الجواد ؛ وعندئذ تبدى له « مارا » أمير الشر ، وأغواه بمسك عريض ، لكن بوذا أبى عليه غوايته ، وظل راكباً جواده حتى صادفه نهر عريض هوتب من شاطئه إلى شاطئه بوثة

(*) ماتت أمه فى ولادته .

واحدة جبارة وطافت بنفسه رغبة أن ينظر إلى بلده لكنه أبى على نفسه الفتنة ليرى ، ثم استدارت الأرض العظيمة حتى لا تصبح أمامه سبيل إلى النظر إلى الوراء (٣٢) .

ووقف عند مكان اسمه « يوروثيلا » يقول : « قلت لنفسى إن هذا المكان رائع ، وإن هذه لغاية جميلة ؛ فالنهر ينساب صافياً ، وأماكن الاستحمام تبعث في النفس السرور ، وكل ما حولي مروج وقرى » . وهاهنا في هذا الموضع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف ؛ ولبث ستة أعوام يحاول أساليب « اليوجا » - رياضة النفس - التي كانت قد ظهرت قبل ذلك في ربوع الهند ؛ وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضى عليه عهد اقتات فيه بالروث ، وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم ، ولبس ثياباً من الوبر وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب ؛ وكان ينفق الساعات الطوال واقفاً أو راقداً على الشوك ، وكان يترك التراب والقذر يتجمع على جسده حتى يشبه في منظره شجرة عجوزاً ؛ وكثيراً ما كان يرتاد مكاناً تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة لياًكلها الطير والوحش ؛ فينام بين هذه الجثث العفنة . ثم اصبح له مرة أخرى يروى لك قصته :

« قلت لنفسى : ماذا لو زيمتُ الآن أسناني ، وضغطت لساني إلى لثاتي ؛ وألحمت عقلي وسميخته وأجرقته بعقلي (وهكذا فعلت) ونضج العرق من لبطى ... ثم قلت لنفسى : ماذا لو اصطنعت الآن غيبوبة شعورية يقف فيها التنفس ؟ وهكذا أوقفت النفس شهيقاً وزفيراً من أنفي وفي ؛ ولما فعلت ذلك سمعت صوتاً عنيفاً للهواء يخرج من أذني . . . وكما يحدث للرجل إذا ما أراد أن يهشم لإنسان رأسه بسن سيفه ، فكذلك رجّت الرياح العنيفة رأسي .. ثم قلت لنفسى : ماذا لو قلت من طعامي ، فلا آكل أكثر مما تسع راحتي من عصير الفول أو العدس أو البسلي أو الحمص .. فضمير جسدي ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت العلامة التي أتركها على الأرض إذا ما جلست ، في هيئة أثر الخلف يتركه البعير على الرمال ؛ وكان من أثر

تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتي إذا ما حنيتها أو فردتها حتى أشبهت صفراً من رعوس المغازل ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عيني تبرقان عميقتين وطيبنتين في محجريهما ، كما يبرق الماء عميقاً وطيباً في بئر عميقة ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن ذبل جلد رأسي كما تتشقق وتذوى القرعة المرة المفصولة عن فرعها وهي فجأة ، بفعل الشمس والمطر ، ولما كنت أمد يدي لأمس جلدة بطني ، كنت أجدني في حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهري ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أني إذا ما أردت برازاً وجدتنى أنبطح على الأرض سطيحاً ، وكان من أثر تقليل الطعام أني إذا أردت راحة لجسمي وأخذت أدلكه بكفي ، كانت الشعرات الذاوية تساقط منه « (٣٣) .

لكن فكرة أشرقت على بوذا ذات يوم وهي أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد ، وربما كان في ذلك اليوم أشد جوعاً منه في سائر الأيام ، وأربما ثارت في نفسه إذ ذاك ذكرى من ذكريات الجمال ، ذلك أنه لم يلاحظ تنويراً جديداً يأتيه من هذه الحياة القاسية بزهدها : « إنني بمثل هذه القسوة لأراني أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر ، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية » ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إن تعذيبه لنفسه قد ولد فيه شعور للزهو بنفسه مما يفسد أي نوع من أنواع التقديس التي كان من الجائز أن تفيض من نفسه ، فأقلع عن زهده وذهب ليجلس تحت شجرة وارفة الظل (*) وجلس هناك جلسة مستقيمة لاحتكاك فيها ، مصمماً ألا يبرح ذلك المكان حتى يأتيه التنوير ، وسأل نفسه : ماصدوما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت ؟ وهنا أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة يتعاقبان في مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهي ؛ ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ؛ وكل سكيننة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد ونخبة أمل جديدة وحزن جديد وألم جديد : « وهكذا

(*) هي « شجرة بوذا » التي ستصبح فيما بعد معبودة عند البوذيين ، ولا تزال هناك تعرض على السالميين عند مرورهم بـ « بوذجايا » .

ركزت عقلي في حالة من نقاء وصفاء ... ركزته في فناء الكائنات وعودتها إلى الحياة في ولادة جديدة ؛ وب نظرة قدسية مطهرة إلهية ، رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود فتولد دنيوية أو سنيوية ، خيرة أو شريرة ، سعيدة أو شقية ، حسب ما يكون لها من «كارما» وفق ذلك القانون الشامل الذي بمقتضاه سيتلقى كل فعل خير ثوابه ، وكل فعل شرير عقابه ، في هذه الحياة ، أو في حياة تالية تتمصص فيها الروح جسداً آخر .

لإن رؤيته لهذا التعاقب السخيف سخفاً لا يخفى على الرائي ، هذا التعاقب بين الموت والولادة ، هي التي جعلته يزدري الحياة البشرية ازدراء ؛ فقال لنفسه : إن الولادة أم الشرور جميعاً ، ومع ذلك فالولادة ماضية في طريقها لا تقف فيه عند حد ، إنها ماضية إلى الأبد في طريقها تعيد إلى مجرى الأحران البشرية فيضه إن فرغ مما يملؤه ؛ فلو استطعنا وقف هذه الولادة . . . لماذا لا نقفها ؟ (*) لأن قانون «كارما» يتطلب حالات جديدة من التتمصص للروح ، لكي يتاح لها أن تكفر عما اقترفت من شرور في حيواتها الماضية ؛ وإذن فإن استطاع الإنسان أن يعيش حياة يسودها عدل كامل ، حياة يسودها صبر وشفقة لا يمتنعان إزاء الناس جميعاً ، لو استطاع أن يحوم بفكره حول ما هو أبدي خالد ، ولا يربط هواه بما يبدأ وينتهي - عندئذ يجوز أن يجنب نفسه العودة إلى الحياة ، وسيغيب معين الشر بالنسبة إليه ؛ لو استطاع الإنسان أن يخمد شهوات نفسه ، ساعياً وراء فعل الخير دون سواه ، عندئذ يجوز أن يمحو هذه الفردية التي هي أولى أوامم الإنسانية وأسوأها أثراً ، وتتحد النفس آخر الأمر باللانهاية اللاواعية ؛ فيا لها من سكيننة نحل بقلب طهر نفسه من شهواته الذاتية تطهيراً تاماً ؟ - وهل تبرى قلباً ، لم يطهر نفسه على هذا النحو قد عرف إلى السكيننة سيلاً ؟ إن السعادة مستحيلة ، فلا هي ممكنة في هذه الحياة الدنيا كما يظن الوثنيون ، ولا هي ممكنة في الحياة الآخرة كما يتوهم

(*) تنفرع فلسفة شوينهور من هذه الأرومة عند هذه النقطة .

أنصار كثير من الديانات ؛ أما ما يمكن أن تظفر به فهو السكينة ، هو الحمود
البارد الذي نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرفانا .

وهكذا بعد سنوات سبع قضائها متأملا ، أدرك « النبي المستنير » سبب
ما يعانيه الناس من آلام فأخذ سمته نحو « المدينة المقدسة » مدينة بنارس ،
وهناك في روضة الغزلان عند « سارنات » طفق يبشر الناس بالنرفانا .

الفصل الرابع

تعالم بوذا (*)

- صورة الزعيم - أساليبه - الحقائق السامية الأربع -
- الطريق ذو الخمس شعب - قواعد الأخلاق الخمس -
- بودا والمسيح - لأدرية بوذا ومناهضه لرجال الدين -
- إلحاده - علم نفس بغير نفس - معنى الرفاذا

كانت وسيلة بوذا في نشر تعاليمه - شأنه في ذلك شأن سائر المعلمين في عصره - هي المحاورة والمحاضرة وضرب المثل . ولما لم يدر في خالده قط - كما لم يدر في خلد سقراط أو المسيح - أن يدون مذهبهم ، فقد لخصه في « عبارات مركزة » أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة ، وهذه المحادثات - على الصورة التي احتفظ لنا بها الرواة من أتباعه - تصور تصويراً لا شعورياً أول شخصية واضحة الحدود والمعالم في التاريخ الهندي : رجل قوى الإرادة ، صادق الرواية ، مزهو بنفسه ، وديع المعاملة ، رقيق الكلام ، محسن لإحساناً

(*) أقدم ما لدينا من وثائق تحتوي على تعاليم بوذا هي الـ « بتاكات » ، ومماها « سلاسل القانون » ، التي أعدت لتعرض على المجلس البوذي الذي أقيم سنة ٢٤١ قبل الميلاد ، وقد وافق هذا المجلس على أن ما في هذه الوثائق هو تعاليم بوذا بغير تحريف ، تلك التعاليم التي لشت أربعة قرون يتناقلها بالرواية الشفوية حيل عن حيل ، أي أنها لبشت كذلك منذ وفاة بوذا حتى انتهى بها الأمر إلى التندوين باللغة « الباليه » حول سنة ٨٠ قبل الميلاد ؛ وهذه « البتاكات » تنقسم في ثلاث مجموعات : « السوتا » أي الحكايات ، و « الفنايا » أي التثريب ، و « الأبيدوما » أي المذهب ؛ أما أولى هذه المجموعات - أعني بتاكة الحكايات - فتحتوي على محاورات بوذا ، التي يضمها « رابيس دافيدز » في منزلة واحدة مع محاورات أفلاطون (٣٤) وإذا أردنا الدقة في القول ، وحب أن نقول إن هذه المدونات لا تحتوي بالضرورة على تعاليم بودا بدمه ، بل تحتوي على تعاليم المدارس البوذية ، ويقول « سير تشارلز إلميت » : على الرغم من أن هذه الحكايات أخذت تزايد على مر القرون ، فليست أرى ما يبرر الريبة بأن أقدم الطبقات في هذا البناء المتراكم تحتوي على ما دونه صحابة الزعيم معتمدين على تذكركم لما سمعوه منه .

لا ينتهى عند حد معلوم ؛ ولقد زعم لنفسه « الاستنارة » لكنه لم يدع
الوحى ، فما زعم قط للناس أن لها كان يتكلم بلسانه ، وهو فى جدله مع خصومه
أكثر صبراً أو مجاملة من أى معلم آخر ممن شهدت الإنسانية من أعلام المعلمين ؛
ويصوره لنا أتباعه — وربما كانوا يضيفون إليه ما ليس فيه لتكامل صورته —
يصورونه لنا مصطنعاً لـ « أهمساً » على أتم درجاتها (والأهمساً هى الامتناع عن
قتل الكائنات الحية على اختلافها) ؛ فيقولون عنه : « إن جوتاما الذى اعتزل
الناس قد رفع نفسه عن الفتك بالحياة ، بأن كف عن قتل الأحياء ؛ لقد خلع
عن نفسه المراهة والسيف (مع أنه كان يوماً من طبقة الكشائرية — أى طبقة
المقاتلين) وهو يزور عن غلظة المعاملة ازوراراً ، ويمتلىء قلبه بالرحمة فهو رحيم
شفوق بكل كائن تدب فيه الحياة . . وترفع عن النيمة ، أو رفع نفسه عن
دناءة الغيبة . . هكذا كان يعيش رابطاً لما انحلت عراه ، مشجعاً لدوام الصداقة
بين الأصدقاء ، مصلحاً ذات البين عند الخصوم ، محباً للسلام ، متحمساً للسلام ،
متحدثاً بكلمات تهىء للسلام (٣٦) » ؛ لقد كان مثل « لاوتسى » ومثل « المسيح »
يود أن يرد السيئة بالحسنة ، والكراهية بالحب ؛ وإذا أسىء إليه فى النقاش
أو أسىء التفاهم بينه وبين من يجاوره ، آثر الصمت « إذا أساء إلى إنسان عن
حق ، فسأرد عليه بوقاية من حبى إياه حباً مخلصاً ، وكلما زادنى شراً ، زدنا
خيراً » ؛ فإذا جاء غر وأهانته ، استمع إليه بوذا وهو صامت ؛ حتى إذا ما فرغ
الرجل من حديثه ، سأله بوذا : « إذا رفض إنسان يا بنى أن يقبل منحة تقدم
إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ » فيجيبه الرجل : « إن صاحبها عندئذ هو من
قدمها » ، فيقول له بوذا : « إني أرفض يا بنى قبول إهانتك ، وأتمس منك
أن تحفظها لنفسك (٢٧) » إن بوذا — على خلاف الكثرة الغالبة من القديسين —
كانت له روح الفكاهة ، لأنه أدرك أن البحث الميتافيزيقي بغير ضحك
يصاحبه ، هو من ضروب الكبرياء .

كانت طريقته في التعليم فريدة لا يماثلها نظير ، ولو أنها مدينة بشيء « للجوالين » أو السوفسطائيين المنتقلين الذين عاصروه في بلده ؛ فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفي صحبته تلاميذه المقربون ، وفي إثره ما يقرب من ألف ومائتين من أتباعه المخلصين ، ولم يكن أبدا يهتم لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمه له أحد المعجبين من سكان البلد الذي يحل فيه ؛ ولقد وصم ذات يوم أتباعه بالعار ، لأنه أكل في منزل امرأة فاجرة (٣٨)؛ كانت طريقته هائماً أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه في حديقة أو غابة أو على ضفة نهر ، وكان يخصص ساعات العصر لتأملاته ، وساعات المساء للتعليم ، وكانت محادثاته تجرى في صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف في الحوار ، أو كان يسوق تعاليمه في عبارات مقتضبة يرمى بها إلى تركيز آرائه تركيزاً يجعلها في صورة من الإيجاز والترتيب بحيث تقرر في الأذهان وأحب « عباراته التعليمية المقتضبة » إلى نفسه هي « الحقائق السامية الأربع » التي بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً :

١ - تلك - أيها الرهبان - هي الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والشيوخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء والحياة واليأس كلها مؤلم . . .

٢ - وتلك - أيها الرهبان - هي الحقيقة السامية عن سبب الألم : سببه الشهوة ، الشهوة التي تؤدي إلى الولادة من جديد ، والشهوة التي تمازجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التي تسعى وراء اللذائذ تتسقطها هنا وهناك ، شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة ، وشهوة العدم .

٣ - وتلك - أيها الرهبان - هي الحقيقة السامية عن وقف الألم :

أن نبحث هذه الشهوة من أصولها فلا تبقى لها بقية في نفوسنا ، السبيل هي الانقطاع والعزلة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش .

٤ - وتلك - أيها الرهبان - هي الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم : إنها السبيل السامية ذات الشعب الثمان ، ألا وهي : سلامة الرأي ، وسلامة النية ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة ما نعى به ، وسلامة التركيز (٣٩) .

كانت عقيدة بوذا التي يؤمن بصدقها ، هي أن الألم أرجح كفة من اللذة الحياة الإنسانية ، وإذن فخبر للإنسان ألا يولد ، وهو في ذلك يقول إن ما سفح الناس من دموع لأغزر من كل ما تحتوى المحيطات العظيمة الأربعة من مياه (٤٠) ، فعنده أن كل لذة تحمل سمها في طيها ، لجرد أنها لذة عابرة قصيرة : « أذلك الذي يزول ولا يقيم هو الحزن أم السرور ؟ » ألتى هذا السؤال على أحد تلاميذه ، فأجابه هذا بقوله : « إنه الحزن يا مولاي » (٤١) ؛ إذن فأس^٤ الشرور هو « قاهبا » - وليس معناها الشهوة كائنة ما كانت ، بل الشهوة الأنانية ، الشهوة التي يوجهها صاحبها إلى صالح الجزء أكثر مما يريد بها صالح الكل ؛ وفوق الشهوات كلها الشهوة الجنسية ، لأنها تؤدي إلى التناسل الذي يطيل من سلسلة الحياة إلى ألم جديد بغير غاية مقصودة ؛ وقد استنتج أحد تلاميذه من ذلك أنه - أي بوذا - بهذا الرأي يجيز الانتحار لكن بوذا صغفه على استنتاجه ذلك ، قائلاً : إن الانتحار لا خير فيه ، لأن روح المنتحر - بسبب ما يشوبها من أدران - ستعود فتولد من جديد في أدوار أخرى من التقمص ؛ حتى يتسنى لها نسيان نفسها نسياناً تاماً .

ولما طلب تلاميذه منه أن يحدد معنى الحياة السليمة في رأيه لكى يزيد الرأي وضوحاً ، صاغ لهم ، « قواعد خلقية خمسة » يهتدون بها - وهي بمثابة

لوصايا ولكنها بسيطة مختصرة ، غير أنها قد تكون «أشمل نطاقاً وأعمس التزاماً ، مما تقتضيه الوصايا العشر»^(٤٢) (*) .

وأما وصاياها الخمس فهي :

- ١ - لا يقتلن أحد كائناً حياً .
- ٢ - لا يأخذن أحد ما لم يُعْطَته .
- ٣ - لا يقولن أحد كذباً .
- ٤ - لا يشربن أحد مسكراً .
- ٥ - لا يقيمن أحد على دنس^(٤٣) .

وترى بوذا في مواضع أخرى يضيف إلى تعاليمه عناصر يتسلسل بها تعاليم المسيح على نحو يدعو إلى العجب : « على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة ، وأن يزيل الشر بالخير . . . إن النصر يولد المقت لأن المهزوم في شقاء . . . إن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها ، وإنما تزول الكراهية بالحب^(٤٤) » . وهو كالمسيح لم يكن يطمئن نفساً في حضرة النساء ، وتردد كثيراً قبل أن يسمح لمن بالانضمام إلى الطائفة البوذية ؛ ولقد سأله تلميذه المقرب « أناندا » ذات يوم :

- « كيف ينبغي لنا يا مولاي أن نسلك إزاء النساء ؟ » .
- « كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا »
- « لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن ؟ »
- « لا تتحدث إليهن يا أناندا »
- « لكن إذا ما تحدثن إلينا يا مولاي فماذا نصنع ؟ »
- « كن منهن على حذر تام يا أناندا » ؛

(*) يشير إلى الوصايا العشر التي جاءت بها الديانة اليهودية : لا تسرق ، لا تقتل النج ، (المعرب)

كالت فكرته عن الدين خلقية خالصة ؛ فكان كل ما يعنيه سلوك الناس
وأما الطقوس وأما شعائر العبادة ، وما وراء الطبيعة واللاهوت ، فكلمها
عنده لا تستحق النظر ؛ وحدث ذات يوم أن هم برهمى بتطهير نفسه من
خطاياها باستحمامه في « جايا » ، فقال له بوذا : « استحم هنا ، نعم هاهنا
ولا حاجة بك إلى السفر إلى جايا أيها البرهمى ؛ كن رحيماً بالكائنات جميعاً ؛
فإذا أنت لم تنطق كذباً ، وإذا أنت لم تقفل روحاً ، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يعط
لك ، وليت آمناً في حدود إنكارك لذاتك — فإذا تجنى من الذهاب إلى
« جايا » ؟ إن كل ماء يكون لك عندئذ كأنه جايا »^(٤٦) ؛ إنك إن تجرد في تاريخ
الديانات من هو أعرب من بوذا يؤسس ديانة عالمية ، ومع ذلك بآني أن يدخل
في نقاش عن الأبدية والخلود والله ؛ فاللانهائي أسطورة — كما يقول —
وخرافة من خرافات الفلاسفة ، الذين ليس لديهم من التواضع ما يعترفون
به بأن اللذة يستحيل عليها أن تفهم الكون ؛ وإنه ليقسم^(٤٧) ساخراً من
المحاورة في موضوع نهائية الكون أو لانهايته ؛ كأنما هو قد تسلف بنظره
إذ ذلك ما يدور بين علماء الطبيعة والرياضيين اليوم من مناقشة حول الموضوع
مناقشة ما أقربها من حديث الأساطير ؛ لقد رفض أن يبدي رأياً عما إذا
كان للعالم بداية أو نهاية ، أو إذا كانت النفس هي أهي البدن أو شيئاً متميزاً منه
أو إذا كان في الجنة ثواب للناس حتى أقدس القديسين من بينهم ؛ وهو يسمى
هذه المشكلات « غاية التأمل النظري وصحراؤه وبهلوانه والتواءه وتعقيده »^(٤٨)
ويعتزم ألا يكون له شأن بأمثال هذه المسائل ، فهي لا تؤدي بالباحثين فيها
إلا إلى الخصومة الحادة ، والكراهية الشخصية والحزن ، ويستحيل أن تؤدي
بهم إلى حكمة أو سلام ، إن القدمية والرضى لا يكونان في معرفة الكون والله ،
وإنما يكونان في العيش الذي ينكر فيه الإنسان ذاته ، ويوسط كفه للناس
إحساناً^(٤٩) ؛ ثم يضيف إلى ذلك تهكماً بشعاً فيقول إن الآلهة أنفسهم ، لو كان

لهم وجود ، لما كان في وسعهم أن يجيبوا عن أمثال هذه المسائل .
 « حدث ذات مرة يا «كفاذا» أن طاف الشك بزميل من طائفة الزملاء .
 هذه ، حول النقطة الآتية : « أين تمضى هذه العناصر الأربعة الكبرى :
 التراب والماء والنار والهواء ، بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » وجعل ذلك الزميل
 يقده زناد عقله حتى أخذته حالة من الوجد اتضححت له معها السبيل المؤدية
 إلى الله .

عندئذ يا «كفاذا» صعد هذا الزميل إلى مملكة الملوك الأربعة الكبار ،
 وخطب آلتهم قائلاً : « أين يا أصدقائي تذهب العناصر الأربعة الكبرى
 — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .
 فلما أن فرغ من سؤاله هذا ، أجابه الآلهة في سماء الملوك الأربعة الكبار :
 « إننا يا أختانا لا ندرى من ذلك شيئاً ، لكن هنالك الملوك الأربعة الكبار ،
 هم أقوى منا وأعظم ، سألهمُ يجيبوك » .

[وعندئذ يا «كفاذا» ذهب ذلك الزميل إلى الملوك الأربعة وسأل نفس
 السؤال فأحيل بمثل ذلك الجواب إلى « الثلاثة والثلاثين » الذين أحالوه بدورهم
 إلى ملكهم « ساكا » الذي أحاله إلى آلهة « ياما » ، وهؤلاء أحالوه إلى
 ملكهم « سوياما » الذي أحاله إلى آلهة « توسيتا » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم
 « سانتوسيتا » ، الذي أحاله إلى آلهة « نمانا — رتي » ، وهؤلاء أحالوه إلى
 ملكهم « سوني ميتا » الذي أحاله إلى آلهة « پارانيميتا فاسافاتي » ، وهؤلاء
 أحالوه إلى ملكهم « فاسافاتي » الذي أحاله إلى آلهة العالم البرهمي .

وبعدئذ «يا كفاذا» جعل ذلك الزميل يركّز تفكيره في نفسه تركيزاً
 استنفد كل ذرة من انتباهه ، وانتهى به ذلك التفكير المركّز إلى شهوده بعقله
 الذي أمسك هكذا بزمامه ، طريق العالم البرهمي واضحاً ؛ فداناً من الآلهة التي
 تتألف منها حاشية براهما ، وقال : « أين يا أصدقائي تذهب العناصر الأربعة

الكبرى - التراب والماء والنار والهواء - بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » ،

« فلما فرغ من سؤاله أجابته الآلهة التي تولف حاشية براهما قائلة : « إننا يا أخانا لاندرى من ذلك شيئاً ، ولكن هنالك براهما ، براهما العظيم ، الواحد العلى ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، مَنْ بيده الأمر والتدبير فى جميع الشئون ، فهو ضابط كل شىء وخالق كل شىء وسيد كل شىء ... هو السابق للزمان ، وهو والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! إنه أقوى منا وأعظم ، مسكتهُ يُجيبك » :

« أين إذن هذا البراهما العظيم ؟ » .

« إننا يا أخانا لاندرى أين يكون براهما ، ولا لماذا كان ولا من أين جاء ، ولكن يا أخانا إذا ما بدت لنا بوادر مجيئه ، إذا ما أشرق الضوء وسطع المجد ، عندئذ سيتبدى لنا الناظرين ، لأن بادرة ظهور براهما هى لإشراق الضوء وسطوع المجد » .

ولم يمض طويل وقت بعد ذلك يا « كفاذا » حتى تبدى براهما العظيم ، فلما منه أخونا ذلك وسأله : « أين يا صديق تذهب العناصر الأربعة الكبرى - التراب والماء والنار والهواء - بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » :

فلما فرغ من سؤاله أجابه براهما العظيم : « أنا يا أخى براهما العظيم العلى القوى البصير ، بيدى الأمر والتدبير فى كل شىء ، وأنا ضابط كل شىء وخالق كل شىء وسيد كل شىء ، أعين لكل شىء مكانه ، أنا السابق للزمان والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! »

عندئذ أجاب الأخ براهما قائلاً : « أنا لم أسألك يا صديق هل أنت حقاً كل هذا الذى ذكرت من صفات ، لكنى سألتك أين تذهب العناصر الأربعة الكبرى - التراب والماء والنار والهواء -- بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » ،

فأجابه براهما نفس الجواب مرة أخرى يا «كشاذا» .

وأعاد أخونا سوءه للمرة الثالثة لى براهما .

فأخذ براهما العظيم - يا «كشاذا» - أننا ذاك ونحاه بجانباً وقال :
« إن هذه الآلهة التي منها تتألف حاشية براهما ، تعتقد أنى - يا أخى - أرى
كل شيء وأعلم كل شيء وأتبين كل شيء ؛ ولهذا لم أجبك في حضرتهم ؛
لكننى ، أيها الأخ ، لست أدري أين تذهب هذه العناصر الأربعة الكبرى
- التراب والماء والنار والهواء - بحيث لا تترك وراءها أثراً » (٥٠) .

فإذا ما قال لبوذا بعض تلاميذه ، أن البراهمة يزعمون الإمام بحلول هذه
المسائل ، أجاهم ساخراً : « هنالك يا إخوتانى بعض الرهبان وبعض البراهمة
تلون مثل ثعابين الماء ، فإذا ما ألقى عليهم سوءاً فى هذا الموضوع أو ذاك ،
عمدوا إلى غموض القول ، وإلى تلوى الثعابين (٥١) ؛ ولوبدت من بوذا حدّ
لزاء أحد إطلافاً ، فإنما كان حاداً تجاه كهنة عصره ، فهو يهزأ بدعواهم أن
أسفار الشيدا من وحى الآلهة (٥٢) ، ويفضح البراهمة المعترزين بطبقهم بقبوله
فى طائفته أعصاء الطوائف جميعاً بغير تفریق ؛ إنه لا يهاجم نظام الطبقات
مهاجمة صريحة ، لكنه يقول لتلاميذه فى وضوح وجلاء : « انتشروا
الأرض كلها وانشروا هذه العقيدة ؛ قولوا للناس إن الفقراء والمساكين ،
والأغنياء والأعين ، كلهم سواء ، وكل الطبقات فى رأى هذه العقيدة
الدينية تتحد لتفعل فعل الأنهار تصب كلها فى البحر » (٥٣) ، وهو يرفض
الأخذ بفكرة التضحية فى سبيل الآلهة ، ويفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان
يذبحونه ليقسموا أمثال هذه الطقوس (٥٤) ؛ ويرفض كل اعتقاد وكل عبادة
لكائنات أعلى من هذه الطبيعة ، ويربأ بنفسه عن التعزيم والرقي والتشف
والدعاء (٥٥) ، ويقدم للناس فى هدوء وبغير حاجة ولحاج ديناً حرّاً أكمل
الحرية من جمود الفكر ومن صناعة الكهنوت ، ويفتح طريقاً للخلاص ،
للكافرين والمؤمنين أن يسلكوه على السواء .

وقد يتحول هذا القديس أحياناً ، الذى هو أشهر من عرف الدهر من قديسى الهندوس ، قد يتحول من اللاأدرية إلى إلحاد صريح (٥٦) (*) ، إنه لا ينحرف عن جادته لينكر وجود الله ، بل إنه حيناً بعد حين يذكر براهما كأنه حقيقة واقعة أكثر منه مثلاً أعلى (٥٨) ثم هو لا يحرم عبادة الآلهة الشائعة بين الناس (٥٩) لكنه يسخر من فكرة إرسال الدعوات إلى « المجهول » ، وفى ذلك يقول : « إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سبباً فى سعادتك أو شقتك (٦٠) لأن السعادة والشقاء دائماً نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن ؛ وهو يأبى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها « قوة وراء الطبيعة ، كائنة ما كانت تلك العقوبات ، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنة ولا مطهراً ولا جحيماً (٦١) ؛ وهو أرهف حساسية للألم والقتل الذى ينزل بالكائنات الحية بحكم العملية البيولوجية فى الحياة ، من أن يفرض أن هذا القتل وذاك الألم قد أرادهما إله مشخص إرادة عن عمد وتدبير ؛ وهو يرى أن هذه الأغلاط فى نظام الكون ترجح ما فيه من آيات تدل على تدبير وتنسيق (٦٢) ؛ انه لا يرى على هذا المسرح الذى تبرز فيه القوضى والنظام ، والخير والشر ، مبدأ ينم عن الدوام ، ولا مركزاً لحقيقة أبدية خالدة (٦٣) ، وكل ما يراه فى الحياة دوامة تدور وحركة ما تنفك فى تغير ؛ إن الحقيقة الميتافيزيقية النهائية فى هذه الحياة هى التغير .

وكما أنه يقترح لاهوتاً بغير إله ، فكذلك يقدم لنا علم نفس بغير نفس ؛ فهو يرفض الروحانية فى شتى صورها حتى فى حالة الإنسان ؛ وهو يوافق هرقليطس وبرجسُن فى رأيهما عن العالم ، كما يوافق هيوم فى رأيه عن العقل ، فكل ما نعرفه هو إحساساتنا ، وإذن ، فإلى الحد الذى نستطيع أن نبلغه بعلمنا ، لا نرى سوى أن المادة كلها ضرب من القوة ، والعناصر كلها نوع من الحركة ،

(*) يقول سير تشارلر إلبت إن البوذية « لا ترى العالم على أنه من خلق شخصية إلهية ، كلا ولا ترى القانون الأخلاقى على أنه من أمرها ؛ فكون الديانة تستطيع أن تقوم بنير هذه الأفكار أمر عظيم الخطر » (٥٧) .

الحياة تغيير، هي مجرى دافق محايد من صيرورة وفناء؛ إن «الروح» أسطورة من الأساطير، فرضناها بغير مبرر يؤيدها، لنريح بهذا الفرض أذهاننا الضعيفة، فرضناها قائمة وزاء سلسلة الحالات الشعورية المتعاقبة^(٦٤) إن هذا «الرابط» الذى يربط المدركات دون أن يكون واحداً منها»؛ هذا «العقل» الذى ينسج خيوط إحساساتنا وإدراكاتنا فى نسيج من الفكر، إن هو إلا شبح توهمناه؛ وكل ما هو موجود حقاً هو الإحساسات نفسها والإدراكات نفسها، تتكون بصورة آلية فى هيئة تذكرات وأفكار^(٦٥)؛ حتى هذه «الذات» النفسية ليست كائناً قائماً بذاته متميزاً من سلسلة الحالات العقلية؛ ليست الذات سوى استمرار هذه الحالات، وتذكر الحالات اللاحقة للحالات السابقة، مضافاً إلى ذلك ما يتعوده الجسم العضوى من عادات عقلية وسلوكية، وما يتكون لديه من ميول واتجاهات^(٦٦)؛ إن تعاقب هذه الحالات لا تسببه «إرادة» أسطورية تضاف إليها من أعلى، بل تقرره الوراثة والعادة والبيئة والظروف^(٦٧) فهذا العقل السائل الذى لا يعدو أن يكون مجموعة من حالات عقلية، هذه النفس أو هذه الذات التى ليست إلا ميلانحو سلوك معين أو هوى إلى اتجاه بذاته، كونه الوراثة التى لا حول لها ولا قوة، كما كونه كذلك الخبرة العابرة خلال تجارب الحياة، أقول إن هذه النفس أو هذه الذات أو هذا العقل يستحيل أن ينطبق عليه معنى الخلود، إذا فهمنا من هذا المعنى استمرار الفرد فى وجوده^(٦٨) فليس القديس، بل ليس بوذا نفسه بخالد بعد موته خلوداً يحفظه بشخصه^(٦٩).

ولكن إن كان ذلك كذلك، فيكف يمكن أن يعود الحى إلى الحياة من جديد فى ولادة ثانية؟ إذا لم يكن هناك روح، فما الذى يتقمص أجساداً أخرى فى ولادات تالية، ليلقى عذابه على خطاياه إذ هو حال فى صورة الجسد؟ تلك هى أضعف الجوانب فى فلسفة بوذا، فهو لا يحاول أبداً أن يزيل التناقض الكائن بين علم نفسه العقلى وبين قبوله للمذهب التقمص قبولاً

أعمى ؛ إن هذا الإيمان بحقيقة التناسخ أو تقمص الروح في أجساد متتالية له في الهند قوة وشمول بحيث يعتنقه كل هندوسى على أنه بديهية أو فرض لا بد من التسليم بصحته ، ولا يكاد يكلف نفسه عناء التدليل عليه ؛ فتعاقب الأجيال هناك تعاقباً سريعاً متلاحقاً بسبب قصر الأعمار وكثرة النسل ، يوحى إلى الإنسان إخفاء لا يستطيع أن يفهم منه ، بأن القوة الحيوية تنتقل من جسد إلى جسد - أو بأن الروح تحلّ بدناً بعد بدن ، إذا عبرنا عن الأمر بعبارة لاهوتية - ؛ ولقد طافت الفكرة برأس بوذا مع مرّ الهواء في أنفاسه ؛ فهذا الهواء يدخل شهباً ويخرج زفيراً هو الحقيقة الواحدة التي لم يشك فيها قط على ما يبدو (٧٠) ؛ إنه سلم تسليماً بعجلة التناسخ في دوراتها وبقانون « كارما » ورتفكيره كله إنما يدور حول سبيل الفرار من هذه العجلة الدوارة ، كيف يمكن للإنسان أن يحقق لنفسه النرفانا في هذه الحياة الدنيا ، والفناء التام في الحياة الآخرة .

ولكن ما « النرفانا » ؟ إنه من العسير أن نجد لهذا السؤال جواباً خاطئاً ، لأن الزعيم قد ترك الموضوع غامضاً ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يستطيع أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير ؛ فالكلمة في السنسكريتية بصفة إجمالية معناها « منطقي » كما ينطق المصباح أو تنطق النار ؛ أما الكتب البوذية المقدسة فتستعملها بمعان : (١) حالة من السعادة يبلغها الإنسان في هذه الحياة باقتلاعه لكل شهواته الجسدية اقتلاعاً تاماً ؛ (٢) تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ؛ (٣) انعدام شعور الفرد بفرديته ؛ (٤) اتحاد الفرد بالله ؛ (٥) فردوس من السعادة بعد الموت ؛ أما الكلمة في تعاليم بوذا فمعناها فيما يظهر إخماد شهوات الفرد كلها ، وما يترتب على ذلك للذات من ثواب وأعنى به الفرار من العودة إلى الحياة (٧١) ؛ وأما في الأدب البوذي ، فكثيراً ما تتخذ الكلمة معنى دنيوياً ، إذ يوصف القديس في هذا الأذب مزاراً بأنه اصطنع النرفانا في حياته الدنيا ، بجمعه لمقوماتها السبعة وهي : السيطرة على

النفس ، والبحث عن الحقيقة ، والنشاط ، والهدوء ، والغبطة ، والتركيز ، وعلو النفس (٧٣) ؛ تلك هي مكونات الأنا ، لكنها تكاد لا تكون عواملها التي تسبب وجودها ، أما العامل المنسب لوجودها ، والمصدر الذي تنبثق عنه الزرقانا ، فهو إخماد الشهوة الجسدية ، وعلى ذلك تتخذ كلمة « زرقانا » في معظم النصوص معنى السكينة التي لا يشوبها ألم ، والتي يثاب بها المرء على إعدام نفسه إعداماً خفياً (٧٤) ؛ يقول بوذا : « والآن فهذه هي الحقيقة السامية عن زوال الألم ، إنه في الحق فناء المرء حتى لا تعود له عاطفة تشهى ، إنه أطراح هذا الإظماً اللاهث ، والتخلص منه والتحرر من ريقته ، ونبذه من نفوسنا نبذاً لا يعود له » (٧٥) وأعنى به هذه الحمى التي تنتابنا من شهوتنا في البحث عن أنفسنا ؛ إن كلمة « زرقانا » في تعاليم الأستاذ الزعيم تكاد دائماً ترادف في معناها كلمة نعم (٧٦) وهو رضى النفس رضى هادئاً بحيث لا يعينها بعدئذ أمرٌ نفسها ؛ لكن الزرقانا الكاملة تقتضى العدم : وإذن فتواب التقوى في المحي منازلتها هو ألا يعود التقى إلى الحياة (٧٧) .

ويقول بوذا إننا في نهاية الأمر ندرك ما في الفردية النفسية والحلقية من سخف ؛ إن نفوسنا المضطربة ليست في حقيقة الأمر كائنات وقوى مستقلة بعضها عن بعض ، لكنها موجات عابرة على مجرى الحياة الدافق ؛ إنها عبقث صغرة تتكون وتتكشف في شبكة القدر حين تنشرها الريح ؛ فإذا ما نظرنا إلى أنفسنا نظرنا إلى أجزاء من كل ، وإذا ما أصلحنا أنفسنا وشهواتنا إصلاحاً يقتضيه الكل ، عندئذ لا تعود أشخاصنا بما ينتابها من خيبة أمل أو هزيمة ، وما يعتورها من مختلف الآلام ومن موت لا مهرب منه ولا مفر ، لا تعود هذه الأشخاص تحزننا حزناً مريراً كما كانت تفعل بنا من قبل ؛ عندئذ تفي هذه الأشخاص في خصم اللانهاية ؛ إننا إذا ما تعلمنا أن نستبدل بحبنا لأنفسنا حباً للناس جميعاً وللأحياء جميعاً ، عندئذ نعلم أننا نعيش من هدوء .

الفصل الخامس

بوذا في أيامه الأخيرة

معجزاته - زيارته لبيت أبيه - الراهبان البوذيون - موته

نتقل من هذه الفلسفة العالية إلى الأساطير الساذجة التي هي كل ما لدينا عن بوذا في حياته الأخيرة وفي موته ؛ فعلى الرغم من ازدهاره للمعجزات ، انتحل تلاميذه ألف حكاية عن الأعاجيب التي تمت على يديه ؛ فقد سار عبر نهر الكنج في لحة بفعل السحر ؛ وأسقط من يده شظية من الخشب كان يزيل بها ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، فنبتت الشظية شجرة ؛ وعندما اختتم وعظه ذات يوم « اهتز العالم كله من أقصاه إلى أقصاه » (٨٠) ؛ ولما أطلق عليه عدوه « ديقاندانا » فيلاً مفترساً ، « غلبه بوذا بالحب » حتى خضع الفيل له خضوعاً كاملاً (٨١) ؛ وقد انتهى « سينارت » وآخرون إلى نتيجة من أمثال هذه المثلح ، وهي أن أسطورة بوذا قد تكونت على أساس من أساطير الشمس القديمة (٨٢) ومهما يكن من أمر ، فبوذا معناه عندنا الأفكار التي تنسب إليه في الأدب البوذي ، ولا شك في أن بوذا صاحب هذه الأفكار التي كان حقيقة تاريخية .

إن الكتب البوذية المقدسة تصور لنا بوذا في صورة تشرح الصدور ؛ فقد التفت حوله أتباع كثيرون ، وذاعت شهرته في مدائن الجزء الشمالي من الهند ؛ ولما سمع أبوه أنه على مقربة من « كاپيلاستو » أرسل إليه رسولا يدعو له لقضاء يوم في مدرج طفولته ؛ وذهب بوذا إلى أبيه الذي كان قد حزن على أمره المفقود ، فسُرَّ أبوه لعودة القديس ساعة من الزمن ؛ وجاءته زوجته التي أنخلصت له طوال غيابها عنها ، فجنث أمامه وأمسكت بعقبه ، ووضعت قدميه حول رأسها ، وقدسته كما تقدرس الله ؛ وقص عليه الملك « شُدْذوذانا » قصة حبها له حباً شديداً : « مولاي إن زوجتك حين علمت أنك تلبس رداء

أصفر (وهو ثوب الزاهدين) لبست هي الأخرى رداء أصفر ؛ ولما علمت أنك تأكل وجبة واحدة كل يوم ، أكلت هي الأخرى وجبة واحدة ؛ ولما علمت أنك أبيت النوم على سرير كبير ، نامت هي الأخرى على كنبه ضيقة ، ولما علمت أنك رفضت أكاليل الزهور ورفضت العطور ، رفضتها هي الأخرى « فباركها بوذا ومضى إلى سبيله (٨٣) .

ثم جاءه ابنه « راهولا » وعبر له عن حبه قائلاً : « إن ظلك أيها الزاهد ليسر النفس ؛ وضمته بوذا إلى طائفته الدينية ، ولو أن أم « راهولا » كانت تأمل أن ترى ابنها ملكاً ؛ لهذا نصبوا أميراً آخر ، وهو « ناندا » ولياً للعهد يتولى العرش حين يحين الحين : لكن « ناندا » ترك حفلة التنصيب — كأنه في غيبوبة — ، تركها قبل ختامها وغادر المملكة وقصد إلى بوذا ، طالباً إليه أن يضمه هو أيضاً إلى طائفته الدينية ، فلما سمع بذلك الملك « شدوذانا » حزن والتمس عند بوذا مكرمة ، قائلاً له : « لما طلق مولانا هذه الدنيا ، لم يكن ذلك حين الوقع على نفسي ، وكذلك حين غادرتنا « ناندا » وقل ما هو أكثر من هذا عن فراق « راهولا » إن حب الوالد لولده يحز الجلد واللحم والمفاصل والنخاع ؛ فرجائي إليك يا مولاي ألا تدع أتباعك الأشراف يضمون إلى طائفتكم ابناً بغير استئذان أبيه وأمه « فوافق بوذا ، وجعل استئذان الوالدين شرطاً لازماً لانضمام العضو الجديد إلى طائفته (٨٤) .

ويظهر أن هذه العقيدة الدينية التي أرادت أن تستغنى عن الكهنوت ، كانت بالفعل قد كونت لنفسها طائفة من النساك الرهبان لا تقل خطراً عن كهنة الهندوس ؛ ولن يطول الأمد بعد موت بوذا حتى يحيطوا أنفسهم بكل أسباب المجد التي كان البراهمة يحيطون أنفسهم بها ، ولا عجب ، فأول المتحولين من البرهمية إلى البوذية ، إنما جاءوا من صفوف البراهمة أنفسهم ، ثم تحول إلى البوذية بعدئذ جماعة من أغني الشباب في بنارس والمدن المجاورة لها ، واصطنع

هؤلاء الرهبان في حياة بوذا قاعدة بسيطة ، فكانوا يجيئون بعضهم بعضاً ، كما يجيئون كل من يتحدثون إليهم بعبارة جميلة هي : « السلام على الكائنات جميعاً » (*) فلم يكن يجوز لهم أن يقتلوا كائناً حياً ، ولم يكن يجوز لهم أن يأخذوا شيئاً لم يعطوه ؛ وكان واجباً عليهم أن يجتنبوا الكذب والنميمة ، وأن يصلحوا ما بين الناس من خصومة ويشجعوهم على الوفاق ، وكان حتماً عليهم أن يظهروا الرحمة دائماً بالناس جميعاً والحيوان جميعاً ، وأن يجتنبوا كل لذائذ الحسد والجسد ، فيجتنبوا الموسيقى ورقصات « ناوتش » والملاهي والألعاب وأسباب الترف واللغو في الحديث والنقاش والتنبؤ بالغيب ، ولم يكن يجوز لهم أن يدوا شيئاً من التجارة بكل صنوف البيع والشراء ، وفوق هذا كله ، وكان لا بد لهم أن يصونوا عقبتهم ، وأن يجانبوا النساء ويعيشوا في طهر كامل (٨٥) ، ولقد توجهت إلى بوذا التماسات كثيرة ناعمة ، فاستجاب لها وأذن للنساء أن يدخلن طائفته راهبات ، لكنه لم يوافق أبداً من صميم نفسه على هذا القرار ، وفي ذلك قال : « إذا لم تأذن يا أناندا للنساء بالدخول في طائفتنا ، دامت العقيدة الخالصة حيناً أطول ، فالتشريع الصالح كان ليقاوم الفناء - بغير دخول النساء - ألف عام ؛ أما وقد أذن لمن بالانضمام إلينا ، فلن يدوم تشريعنا أكثر من خمسمائة عام » (٨٦) ، وكان في ذلك على صواب ، فعلى الرغم من أن اللطائف العظيمة قد لبثت حتى عهدنا هذا ؛ إلا أنها قد أفسدت تعاليم الأستاذ منذ زمن طويل ، بما أدخلته عليها من سحر وتعدد للألثة وخرافات لا تقع تحت الحصر .

ولما دنت حياته الطويلة من ختامها ، راح أتباعه يؤثرونه ، لم ينظروا في ذلك موته ، على الرغم من أنه كان دائماً يحفزهم على البشك في صحة ما يقوله لهم ، حتى يفسح كل منهم مجال التفكير الحر أمام نفسه ؛ وورد في محاورته من أواخر محاوراته :

(*) انظر أيضاً صيغة السلام الجميلة التي يستعملها اليهود والمسلمون [« السلام عليكم و
السلام على العالمين »] ، ولكن يشدون السعادة ، ولكن يشدون السلام .

وجاء « ساريپوتا » الوقور إلى حيث كان النبي المعظم ، وحياه وجلس إلى جالبه في احترام وقال :

« مولاي ، إن إيماني بالنبي العظيم ليبلغ من القوة بحيث لا أظن أن أحداً فيما مضى أو فيما هو آت ، أو أن أحداً فيمن يعاصروننا ، سواء أكان من طائفة المتجولين أو طائفة البراهمة ، أعظم وأحكم من النبي العظيم . . . فيما يخص الحكمة العليا » .

فأجاب الأستاذ : « كلماتك عظيمة جريئة يا « ساريپوتا » الحق أنك بعبارتك هذه قد رُحِتْ تنشُد أغنية كما ينشد النشوان أغانيه ! وكأني بك - إذن - قد عرفت كل الأنبياء المعظمين فيما مضى . . . وفهمت آراءهم بعقلك . فعلمت كيف كانوا يسلكون وهم كانوا يفكرون . . . وأى ضروب التحرر قد بلغوا ؟ » .

« لا ياسيدي ، لم أبلغ من الأمر كل هذا » :
« وكأني بك قد أدركت كل الأنبياء المعظمين الذين سيأتي بهم الزمان . . . وفهمت كل آرائهم بعقلك ؟ » .

« لا يا مولاي ، لم أبلغ من الأمر هذا » .
« إذن فلا أقل يا « ساريپوتا » من أن تكون قد عرفتني . . . وأن تكون قد تغلغلت في ضمير عقلي ؟ » . . .
« حتى ولا هذا يا مولاي » .

« إذن فهأت ذا ترى يا « ساريپوتا » أنك لا تعلم أفئدة الأنبياء القادرين المتيقظين الذين ظهرُوا فيما مضى ، والذين سيظهرون في المستقبل ؛ فلماذا إذن تقول مثل هذه الكلمات العظيمة الجريئة ، لماذا تنطق منشداً لأغنية للنشوان ؟ » (٨٧)

وكذلك لقن « أناندا » أعظم دروسه وأشرفها :
« وإن كل من صار لنفسه - يا أناندا - مصباحاً يهدي ، وكل من صار لنفسه ملاذاً يثوي ، سواء في حياتي أو بعد موتي ، فلن يلتمس لنفسه من غير

نفسه مأوى ، وسيستمسك بالحق مصباحاً .: فلا يطلب من غير نفسه ملاذاً -
 أمثال هؤلاء ... هم الذين سيبلغون أعلى الذرى ! لكن ينبغي أن يكون بهم
 شغف بالمعرفة (٨٨) .

ومات بوذا عام ٤٨٣ قبل الميلاد ، وهو في عامه الثمانين ، وكانت آخر
 كلماته لرهبانه : « والآن أيها الرهبان ، ها أتندا أوجه إليكم الخطاب ؛ إن كل
 ما هو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجاد » (٨٩) .